اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

فالزبَد : هو القشّ والفُتات الذى يحمله الماء ، فيكون طبقة على سطح الماء ، ثم يزيحه الهواء إلى الجوانب ، ويظل الماء بعده صافياً ، فالزبَد مثَلٌ للباطل ؛ لأنه يعلو على سطح الماء ، لكن إياك أن تظن أنه ذو شأن ، أو أن علُوه سيدوم ؛ لأنه غثاء لا قيمة له ، وسرعان ما يزول ويبقى الماء النافع ، وكما يتكون الزبَد على سطح الماء كذلك يتكوَّن عند صَهْر المعادن ، فحين يصهر الصائغ مثلاً الذهب أو الفضة يخرج المعدن الأصيل تاركاً على الوجه الخبَث الذى خالطه .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الله تعالى لا يترك الحق ، ولا يُسْلمه أبداً للباطل ، إنما يتركه لحين ليبلو غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا على الحق غار هو سبحانه عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

هذا استفهام يريد منه الحق - سبحانه وتعالى - قضية يُقرها المقابل ، فلم يوردها بصيغة الخبر : لا أظلم ؛ لأن الخبر فى ذاته يحتمل الصدق أو الكذب ، فجاء بصيغة الاستفهام لتنطق أنت بالقضية ، كما تقول لمن ينكر معروفك : مَنْ أعطاك هذا الثوب ؟ فلا يملك إلا أنْ يعترف بفضلك ، لكن إنْ قلت له إخباراً : أنا أعطيتُك هذا الثوب ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وربما ينكر فيقول : لا لم تعطنى شيئاً .

إذن : إيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى فى تقرير واقع من أسلوب الخبر ؛ لأن الخبر يأتى من المتكلم ، أمّا الإقرار فمن السامع ، وأنت لا تُلقى بالاستفهام إلا وأنت واثق أن الجواب سيأتى على وَفْق ما تريد .

فمعنى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ .. (٦٨) ﴾ [العنكبوت] لا أحد أظلم ، والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ، وهو الظلم فى القمة فى العقيدة ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وقد يكون الظلم بسيطاً هيِّناً ، فالذى افترى على الله الكذب ، لا أحدَ أظلم منه ؛ لأنه لو افترى على مثله لكان أمره هيناً ، لكنه افترى على مَنْ ؟ على الله ، فكان ظلمه عظيماً ، ومن الحمق أن تفترى على الله ؛ لأنه سبحانه أقوى منك يستطيع أن يُدلل ، وأنْ يبرهن على كذبك ، ويستطيع أن يدحرك ، وأن يُوقفك عند حدِّك ، فمَن اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافتراء كذب ، لكنه متعمد ؛ لأن الإنسان قد يكذب حين يخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم ، لذلك عرَّف العلماء الصدق والكذب فقالوا : الصدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذب أن يخالف الكلامُ الواقعَ ، فلو قلتُ خبراً على مقتضى علمى ، ولم أقصد مخالفة الواقع ، فإن خالف كلامى الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس بكاذب .

وقوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ .. (٦٨) ﴾ [العنكبوت] فيا ليته افترى على الله كذباً ابتداءً ، إنما صعَّد كذبه إلى مرحلة أخرى فعمد إلى أمر صدْق وحقٍّ فكذَّبه . ثم يقرر جزاء هذا التكذيب بأسلوب

الاستفهام أيضاً ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾ [العنكبوت] يعني : أضاقتْ عنهم النار ، فليس بها أمكنة لهؤلاء ؟ بلى بها أمكنة لهم ، بدليل أنها ستقول وهي تتشوق إليهم حين تسأل : ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وكأن الحق سبحانه يقول : لماذا يفترى هؤلاء على الله الكذب ؟ ولماذا يُكذِّبون الحق ؟ اعلموا أن جهنم ليس بها أماكن لهم ؟ فالاستفهام فى ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾ [العنكبوت] استفهام إنكارى يُنكر أن يظن المكذبون الكافرون أنه لا مكان لهم فى جهنم .

فالحق سبحانه فى إرادته أزلاً أن يخلق الخَلْق من لَدُن آدم - عليه السلام - وإلى أنْ تقوم الساعة ، وأنْ يعطيهم الاختيار ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وقدر أن يؤمنوا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى الجنة ، وقدر أن يكفروا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى النار .

فإذا كان يوم القيامة يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النارَ ، يورث الله المؤمنين فى الجنة أماكن الكافرين فيها فيتقاسمونها بينهم ، وكذلك يتقاسم أهل النار أماكن المؤمنين فى النار بالرد ، فمَنْ كان له فى النار مكان واحد يصير له مكانان .

كما أن الاستفهام ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾ [العنكبوت] يجعل السامع يشاركك الكلام ، وفيه معنى التقريع والتوبيخ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

يلتفت الله إلى المؤمنين الذين استُهزِئ بهم في الدنيا : هل قدرنا أنْ نجازي هؤلاء الكافرين ، ونردّ إليكم حقوقكم ـ وفي هذا إيناسٌ للمؤمنين وتقريعٌ للكافرين ـ فيقولون : نعم يا رب ، نعم يا رب ، نعم يا رب ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحرش المؤمنين بهم ، فلا يلينون لهم ، ولا يعطفون عليهم ، لأنهم طَغَوْا وتكبَّروا ، وعرضتْ عليهم الحجج والأدلة فكذَّبوها وأصرُّوا على عنادهم ، فبالغوا في الظلم .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾

نقول : جَهَدَ فلان يجهد أي أتعب نفسه واجتهد : ألح في الاجتهاد وجاهد غيره ، فجاهد تدل على المفاعلة والمشاركة ، وهي لا تتم إلا بين طرفيْن ، وفي هذه الصيغة (المفاعلة) نغلب الفاعلية في أحدهما ، والمفعولية في الآخر ، مع أنهما شركاء في الفعل ، فكلٌّ منهما فاعل في مرة ، ومفعول في أخرى ، كأنك تقول : شارك زيدٌ عمراً ، وشارك عمرو زيداً . أو : أن الذي له ضلْع أقوى في الشركة يكون فاعلاً والآخر مفعولاً .

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه أن مثوى الكافرين المكذِّبين في جهنم وحرَّش المؤمنين بهم ، وما داموا قد ظلموا هذا الظلم العظيم لا بُدَّ أن يوجد تأديب لهم ، هذا التأديب لا لإرغامهم على الإيمان ، ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] إنما التأديب أن نجهر

بدعوتنا ، وأن نعلى كلمة الحق ، فمن شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليظل على حاله ، إذن : فالآية تبين موقف المؤمنين أمام هؤلاء المكذبين :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا[1] فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

معنى (جاهدوا فينا) أى : من أجلنا ولنصرة ديننا ، والخصومات التى نجاهدها فى الله كثيرة : خصومة فى مسألة القمة الإيمانية ووجود الإله الواحد كالملاحدة الذين يقولون بعدم وجود إله فى الكون ، وهؤلاء لهم جهاد ، وأهل الشرك الذين يقرون بوجود الله لكن يدَّعُون أن له شريكاً ، وهؤلاء لهم جهاد آخر .

فجهاد الملاحدة بالمنطق وبالحجة ليقولوا هم بأنفسهم بوجود إله واحد ، ونقول لهم : هل وُجِد مَن ادعى أنه خلق ذاته أو خلق غيره ؟ بل تأملوا فى أتفه الأشياء التى تستخدمونها فى حياتكم : هذا الكوب الزجاجي وهو ترف ليس من ضروريات الحياة هل تقولون : إنه وُجد هكذا دون صانع ؟ إذن : كيف وُجِد ؟ هل لدينا شجرة مثلاً تطرح لنا هذه الأكواب ؟

إذن : هى صنعة لها صانع ، استخدم العقل الذى منحه الله إياه ، وأعمله فى المواد التى جعلها الله فى الكون ، واستنبط منها هذه المادة (الزجاج) .

مصباح الكهرباء الذى اخترعه (إديسون) كم أخذ منه من جهد وبحث ودراسة ، ثم يحتاج فى صناعته إلى معامل ومهندسين وصيانة ، ومع ذلك حصاة صغيرة تكسره فينطفىء ، وقد أخذ

---

(١) قال أبو سليمان الدارانى : ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله ، وهو الجهاد الأكبر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥٢٥٥/٧] .

(أديسون) كثيراً من الشهرة وخلَّدنا ذكراه ، وما زالت البشرية تذكر له فضله .

أفلا ينظرون فى الشمس التى تنير الدنيا كلها منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة دون أنْ تحتاج إلى صيانة ، أو إلى قطعة غيار ؟ وهل يستطيع أحد أن يتناولها ليصلحها ؟ وهل تأبَّتْ الشمس عن الطلوع فى يوم من الأيام ، وما تزال تمدكم بالحرارة والأشعة والدفء والنور ؟

أتعرف مَنْ صنع المصباح ، ولا تعرف مَنْ صنع الشمس ؟ لقد فكرتم فى أتفه الأشياء وعرفتم مَنْ صنعها ، وأرَّخْتُم لهم ، وخلدتم ذكراهم ، ألم يكن أوْلَى بكم التفكُّر فى عظمة خلق الله والإيمان به ؟

ثم قُلْ لى أيها الملحد : إذا غشيك ظلام الليل ، كيف تضيئه ؟ قالوا : كل إنسان يضىء ظلام ليله على حَسْب قدرته ، ففى الليل ترى الإضاءات مختلفة ، هذا يجلس فى ضوء شمعة ، وهذا فى ضوء لمبة جاز ، وهذا فى ضوء لمبة كهرباء ، وآخر فى ضوء لمبة نيون ، فالأضواء فى الليل متباينة تدل على إمكانات أصحابها ، فإذا ما طلعتْ الشمس ، وأضاء المصباح الربانى أطفئت كل هذه الأضواء ، ولم يَعُدْ لها أثر مع مصباح الخالق الأعظم سبحانه .

أليس فى هذا إشارة إلى أنه إذا جاءنا حكم من عند الله ينبغى أنْ نطرح أحكامنا جميعاً لنستضىء بحكم الله ؟ أليس فى صدق المحسوس دليل على صدق المعنويات ؟

وأنت يا مَنْ تدَّعى أن لله شريكاً فى مُلْكه : مَن الذى قال إن لله شريكاً ؟ لقد قلتها أنت من عند نفسك ؛ لأن الله تعالى حين قال : أنا إله واحد لا شريك لى لم يعارضه أحد ، ولم يدَّعِ أحد أنه شريك لله .

فهذا دليل على أن الشريك غير موجود ، أو أنه موجود ولم يَدْرِ ، أو درى ولم يقدر على المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

ثم على فرض أنه موجود ، ما منهجه ؟ بماذا أمرك وعَمَّ نهاك ؟ ماذا أعدَّ لك من النعيم إنْ عبدته ؟ وماذا أعد لك من العذاب إنْ كفرتَ به ؟ إذن : فهذا الإله المزعوم إله بلا منهج ، فعبادته باطلة .

أما هؤلاء الذين يؤمنون بدين سماوى ولا يؤمنون بالرسول ﷺ فنقول لهم : يكفى من جوانب العظمة فى شخصية محمد بن عبد الله أنه لا يتعصب لنفسه ؛ لأن قلبه مع كل مَنْ يؤمن بالله حتى وإنْ كفر به ، محمد يحب كل مَنْ آمن بربه ، وإنْ كفر بمحمد ، إنه يتعصب لربه حتى فيمن كذبه .

ثم أنتم يا أصحاب الديانات اليهودية أو المسيحية الذين عاصرتم ظهور الإسلام فأنكرتموه ، مع أن دينكم جاء بعد دين ، ورسولكم جاء بعد رسول سابق ، فلماذا لما جاءكم محمد كذَّبتموه وكفرتم به ؟ لماذا أبحتم أنْ يأتى عيسى بعد موسى عليهما السلام ، وأنكرتُم أنْ يأتى بعد عيسى محمد ؟

إذن : لكل خصومة فى دين الله جدل خاص ومنطق للمناقشة نقوم به فى ضوء : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] وعليك أن تنظر أولاً ما موقع الجهاد الذى تقوم به ، فجهاد الملاحدة بأسلوب ، وجهاد المشركين بأسلوب ، وجهاد أهل الكتاب بأسلوب ، وجهاد المسلم للمسلم كذلك له منطق إنْ دبَّ بينهما الخلاف ، مع أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

فساعةَ ترى كلاً منهما في طرف ، بحيث لا تستطيع أن تتبع أحدهما ، فاعلم أنهما على باطل ؛ لأن الإسلام شيء واحد سبق أنْ شبَّهناه بالماء الأبيض الصافي الذي لم يخالطه لون ولا رائحة ولا طعم ، فإنْ لوَّنته الأهواء وتحزَّب الناس فيه كما يُلوِّنون العصائر فقد جانبهم الصواب وأخطأوا الدين الصحيح .

لأن ما جاء فيه حكم صريح من عند الله اتفقنا عليه ، وما تركه الله لاجتهادنا فينبغي على كُلٍّ منا أن يحترم اجتهاد الآخر ، وأن يقول : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ، وبهذا المنطق تتعايش الآراء .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل على ذلك ، فما أراده سبحانه في المنهج مُحكماً يأتي محكماً في قول واحد لا خلاف فيه ، وضربنا مثلاً لذلك بآية الوضوء : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. ⦗٦⦘﴾ [المائدة]

فلم يحدد الوجه ؛ لأنه لا خلاف في تحديده بين الناس ، إنما حدد الأيدى لأنها محل خلاف . إذن : فالقضايا التي تُثار بين المسلمين ينبغي أن يكون لها جدل خاص في هذا الإطار دون تعصُّب ، فما جاءك مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأى التزم به الجميع ، وما تُرك بلا تنصيص لا يحتمل الخلاف ، فليذهب كل واحد إلى ما يحتمله النص .

فالباء في لغتنا مثلاً تأتي للتبعيض ، أو للاستعانة ، أو للإلصاق ، فإنْ أخذتَ بمعنىً فلا تحجر على غيرك أنْ يأخذ بمعنى آخر .

فإن استعر القتال بين طائفتين من المسلمين ، فيجب أن تكون

هناك طائفة معتدلة تتولى أمر الإصلاح ، كما قال سبحانه :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ ﴾ [الحجرات]

نلحظ أن الله تعالى سماهم مؤمنين ، ومعنى ذلك أن الإيمان لا يمنع أن نختلف ، وهذا الإيمان الذى لا يمنع أن نختلف هو الذى يُوجب علينا أن يكون منا طائفة معتدلة على الحياد لا تميل هنا أو هناك ، تقوم بدوْر الإصلاح وبدوْر الردع للباغى المعتدى حتى يفيء إلى الجادة وإلى أمر الله .

فإنْ فاءت فلا نترك الأمور تُخيِّم عليها ظلال النصر لفريق ، والهزيمة لفريق آخر ، إنما نصلح بينهما ، ونزيل ما فى النفوس من غلٍّ وشحناء ، فقد تنازل القوى عن كبريائه لما ضربنا على يده ، وقوى الضعيف بوقوفنا إلى جانبه ، فحدث شيء من التوازن وتعادلتْ الكفتان ، فليعُدْ الجميع إلى حظيرة الأمن والسلام .

بقى لنا أن نتحدث عن جهاد آخر أهم ، هو جهاد النفس البشرية ؛ لأن النبى ﷺ لما عاد من إحدى الغزوات قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »(١) فوصف جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر ، لماذا ؟ لأنك فى ساحة القتال تجاهد عدواً ظاهراً ، يتضح لك عدده وأساليبه ، أمّا إنْ كان عدوك من نفسك ومن داخلك ، فإنه يعزّ عليك جهاده ، فأنت تحب أنْ تحقق لنفسك شهواتها ، وأنْ تطاوعها فى أهوائها ونزواتها ، وهى فى هذا كله تُلح عليك وتتسرَّب من خلالك .

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » (١٣/ ٤٩٣) .

فعليك أنْ تقف في جهاد النفس موقفاً تقارن فيه بين شهوات النفس العاجلة وما تُورثك إياه من حسرة آجلة باقية ، وما تضيعه عليك من ثواب ربك في جنة فيها من النعيم ، ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ضع ربك ونفسك في هذه المقابلة وتبصَّر ، واعلم أن لربك سوابقَ معك ، سوابق خير أعدَّها لك قبل أن توجد ، فالذى أعدَّ لك كل هذا الكون ، وجعله لخدمتك لا شكَّ مأمون عليك ، وأنت عبده وصنعته ، وهل رأيت صانعاً يعمد إلى صنعته فيحطمها ؟

أما إن رأيت النجار مثلاً يمسك (بالفارة) وينحت في قطعة الخشب ، فاعلم أنه يُصلحها لأداء مهمتها ، وأذكر قصة الطفل (أيمن) الذى جاء أمه يبكى ؛ لأن الخادمة تضرب السجادة ، فأخذتْه أمه وأرتْه التراب الذى يتساقط من السجادة في كل ضربة من ضربات الخادمة ، ففهم الطفل على قدر عقله .

وكذلك الحق سبحانه حين يبتلى خَلْقه ، فإنما يبتليهم لا كَيْداً فيهم ، بل إصلاحاً لهم . ألم نسمع كثيراً أماً تقول لوحيدها (إلهى أشرب نارك) ؟ بالله ما حالها لو استجاب الله لها ؟ وهى في الحقيقة لا تكره وحيدها وفلذة كبدها ، إنما تكره فيه الخصلة التى أغضبتها منه .

وكذلك الحق - سبحانه وتعالى - لا يكره عبده ، إنما يكره فيه الخصال السيئة فيريد أنْ يُطهِّره منها بالبلاء حتى يعود نقياً كيوم ولدته أمه ، فأحسن أيها الإنسان ظنك بربك .

إذن : نقول : إن من أعظم الجهاد جهادك لنفسك ، لأنها تُلح عليك أنْ تُشبع رغباتها ، كما أنها عُرْضة لإغراء الهوى ووسوسة الشيطان

الذى يُزيِّن لها كل سوء ، ويُحبِّب إليها كل منكر .

وسبق أنْ بيَّنا : كيف نُفرِّق بين تزيين الشيطان وتزيين النفس ؛ لأن للنفس مدخلاً فى المعصية بدليل قول النبى ﷺ : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقتْ أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين »[1] .

فلو كانت الذنوب كلها بسبب الشيطان لم نجد من يذنب فى رمضان ، إنما هناك كثير من الذنوب تُرتكب فى رمضان ، وهذا يعنى أنها من تزيين النفس ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يكشف ابن آدم : ها أنا قد صفَّدْت الشياطين ومع ذلك تذنبون .

فإنْ أردتَ أنْ تعرف هل المعصية من النفس أم من الشيطان ، فإن النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد سواها ، ولا تنتقل بك إلى غيرها ، وتظل تُلح عليك إلى أنْ تُوقعك فيها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً بأية صورة وعلى أية حال ، فإنْ تأبَّيْتَ عليه نقلك إلى معصية أخرى .

وعلى العاقل أن يتأمل ، فالمعصية تعطيك لذة عاجلة ومتعة فانية ، لا تليق أبداً بهذا الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وسيداً لهذا الكون ، والكون كله بأرضه وسمائه خادم له ، فهل يُعقل أنْ يكون الخادم أطول عمراً من المخدوم ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٥٧) والبخارى فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : قال ابن حجر فى الفتح(٤/١١٤): « قال القاضى عياض : يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو ، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين » .

إنك تموت بعد عام أو بعد مائة عام ، في حين أن الشمس التي تخدمك تعمر ملايين السنين : إذن : لا بُدَّ أن لك حياة أخرى أبقى وأدوم من حياة خادمك ، فإنْ كنتَ الآن في حياة تُوصَف بأنها دنيا ، فهذا يعني أنها تقابلها حياة أخرى تُوصَف بأنها عليا ، وهي حياتك في الآخرة ، حيث لا موتَ فيها أبداً .

والقرآن الكريم حينما يُحدِّثنا عن الجهاد يقول مرة : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٤١) ﴾ [التوبة] ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

الجهاد في سبيل الله أي في الطريق إلى الله لإثبات الإيمان بالإله الواحد ، وصدق البلاغ من الرسول المؤيَّد بالمعجزة وبالمنهج ، فإذا وضح لك السبيل فآمنتَ بالله الواحد الأحد قال لك : اجعل كل حركة حياتك في إطار ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] يعني : من أجلنا مخلصين لله لا ينظرون إلى غيره .

والإنسان مهما تحرَّى الإخلاص في عمله ، وقصد به وجه الله لا يأمن أن يخالطه شيء من رياء أو سمعة ، حتى أن المعصوم محمداً ﷺ ليقول : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطني فيه ما ليس لك »[1] .

وهذا معنى (جاهدوا فينا) أن يكون العمل كله لله خالصاً ، وإلاَّ فما الفَرْق بين المؤمن والكافر ، وكلاهما يعمل ويسعى في الدنيا

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت .

لكسب لقمة العيش له ولأولاده ، فهما في السعي سواء ، فما مزية المؤمن إذن ؟

الميزة أن الكافر يعمل على قَدْر حاجته فحسب ، أمّا المؤمن فيعمل على قدر طاقته ، فيأخذ ما يكفيه ويعود بالفضل على مَنْ لا طاقةَ عنده للعمل ، ففي نيته أن يعمل له وللمحتاج غير القادر .

ونمثل لذلك بالبقال الذي فتح الله عليه ، فباع كثيراً في أول النهار وأخذ كفايته ، ثم أغلق محله فلم ينظر إلى الذين يعاملونه على الشهر ، ويأخذون حاجتهم لأجَلٍ ، ولم ينظر إلى ربة البيت التي تنتظر عودة زوجها لتشتري ما يلزمها ، فقد نظر إلى حظ نفسه ، ونسي حظ الآخرين .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾ [المؤمنون] ولم يقل مُؤدُّون إنما : فاعلون من أجل الزكاة أي : يعملون على قَدْر طاقتهم ، لا على قدْر حاجتهم . فالذين يعملون في إطار ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] لا يغيب الله أبداً عن بالهم .

ولكي نفقه هذه المسألة انظر إلى عمل أو جميل قدَّمته لغير وجه الله ترى أن صاحبه أنكره ، بل ربما لا ينالك منه إلا الذمّ ، وساعتها لا تلومنّ إلا نفسك ؛ لأنك أخطأت التوجه ، وقد عملت للناس فخُذْ أجرك منهم ، إنما إنْ عملتَ لوجه الله فثقْ أن جميلك محفوظ عند الله وعند الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما أعطى للإنسان الاختيار في أن يؤمن أو أنْ يكفر يلفت بهذا أنظارنا أنه إذا صنعتَ جميلاً في إنسان ،

ثم أنكر جميلك وكفر به ، فلا تحزن ؛ لأن الناس فعلوا ذلك مع الله - عز وجل - فقد خلقهم ورزقهم ثم كفروا به .

ثم يأتى جزاء الجهاد فى ذات الله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] أى : ندلّهم على الطرق الموصِّلة إلينا ، كأن الطريق إلى الله ليس واحداً ، إنما سبل شتى ؛ لذلك لا تحقرنَّ من الطاعة شيئاً مهما كان يسيراً ، فإن الله تعالى غفر لرجل سقى كلباً يلهث من العطش[1] ، ولا تحقرن من المعصية شيئاً ، فإن الله أدخل امرأة النار لأنها حبست قطة[2] ، ولا تحتقرن عبداً مهما كان ، فإن الله تعالى أخفى أسراره فى خَلْقه ؛ فرُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبرّه .

فإذا علمتَ من نفسك ميزة على الآخرين فانظر فيم يمتازون به عنك ، ودَعْك من نظرة تُورثك كبراً ، واستعلاء على الخَلْق ، فإنْ كنت أفضل فى شىء فأنت مفضول فى أشياء كثيرة ، وسبق أن قلنا : إن الله نثر المواهب بين الخَلْق ليظلوا ملتحمين بحاجة بعضهم إلى بعض .

فقوله تعالى ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] أى : السبل الموصِّلة لنعيم الآخرة ، سبل الارتقاء فى اليقين الإيمانى الذى قال الله عنه : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم .. (١٢) ﴾ [الحديد]

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣١٨) قال ابن حجر فى الفتح (٦/٣٥٧) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

ويقول سيدنا عمر بن عبد العزيز : ما قصَّر بنا فى علم ما جهلناه ، إلا تقصيرنا فى العمل بما علمناه[1] فالذى جعلنا لا نعرف أسرار الله أننا قصرنا فى العمل بما أمرنا به ، إذن : فلماذا يعطينا ونحن لا نعمل بما أخذنا من قبل ، لكن حين تعمل بما علمتَ ، فأنت مأمون على منهج الله ، فلا يحرمك المزيد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال] والفرقان من أسماء القرآن ، فحين تتقى الله على مقتضاه ، وبمدلول منهجه فى القرآن يمنحك فرقاناً آخر ونوراً آخر تبصر به حقائق الأشياء ، وتهتدى به إلى الحكم الصحيح ، هذا النور الذى وهبه الله للإمام على ـ رضى الله عنه ـ حينما دخل على عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فوجده يريد أنْ يقيم الحَدَّ على زوجة ولدتْ لستة أشهر ، والشائع أن فترة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : لكن الله قال غير ذلك يا أمير المؤمنين ، قال عمر : وماذا قال يا على ؟

قال على : قال الله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. ﴿٢٣٣﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : أربعة وعشرون شهراً .

وقال فى موضع آخر : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] وبطرح العددين يكون الباقى ستة أشهر ، وهى أقل مدة للحمل .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٥٥) . وتمامه : « ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا » .

هذا هو الفرقان الذى يمنحه الله للمؤمنين الذين عملوا بما علموا ؛ لذلك كان عمر بن الخطاب وما أدراك ما عمر ؟ عمر الذى كان ينزل الوحى على وَفْق رأيه ، كان يقول : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

ومعلوم أن علياً - رضى الله عنه - تربَّى فى حِجْر رسول الله ، وشرب من معينه ، فكل معلوماته إسلامية ، وله فى الحق حجة ومنطق . فمثلاً فى موقعة صفِّين التى دارتْ بين على ومعاوية كان عمار بن ياسر فى صفوف على ، فقتله جنود معاوية ، فتذكر الصحابة قول رسول الله لعمار « وَيْح عمار ، تقتله الفئة الباغية »[1] فعلموا أنها فئة معاوية .

فأخذ الصحابة يتركون صفوف معاوية إلى صفوف على ، فأسرع عمرو بن العاص وكان فى جيش معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين فَشَتْ فاشيةٌ فى الجيش ، إنْ هى استمرت فلن يبقى معنا أحد ، قال : وما هى ؟ قال : تَذَكَّر الناس قول رسول الله « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » قال معاوية : فأفْشِ فيهم ، إنما قتله مَنْ أخرجه للقتال - أى على - فلما بلغ علياً هذه المقالة قال بما عنده من الفرقان والحجة : إذن قولوا له مَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟

فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ومثَّلْنا لذلك قلنا : هب أن لك ولداً متعثراً غير مُوفَّق فى حياته العملية ، فنصحك إخوانك بأنْ تعطيه فرصة ، وتجربه ولو بمشروع صغير فى حدود مائة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٩١/٣) ، والبخارى فى صحيحه (٥٤١/١) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٤٦/٢) من حديث أبى سعيد الخدرى . وويح كلمة ترحُّم وتوجُّع . تُقال لمن تنزل به بلية . [لسان العرب - مادة : ويح] .

جنيه ، فلما فعلتَ بدَّد الولد هذا المبلغ ولم ينتفع به ، أتجرؤ على منحه مبلغاً آخر ؟ وإنما لو ثمَّر هذا المبلغ ونماه لأعطيته أضعافاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت] الإحسان من الإنسان أن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، والإحسان فى الأداء أن تزيد عما فرض الله عليك ، لكن من جنس ما فرض ، فإذا أنت أحسنتَ أحسن الله إليك بأنْ يزيدك إشراقاً ، ويزيدك نورانية ، ويُخفِّف عنك أعباء الطاعة ، ويُقبِّح فى نفسك المعاصى .

لذلك بلغت محبة أحد العارفين للطاعة حتى قال : اللهم إنى أخاف ألاّ تثيبنى على طاعتى ؛ لأننى أصبحتُ أشتهيها . يعنى : لو لم تكن هناك جنة ولا نار لفعلتُ الطاعة ؛ لأنها أصبحتْ بالنسبة لى شهوةَ نفس ، وقد أمرتنا يا ربّ أن نخالف شهوة النفس لذلك أخاف ألاَّ تثيبنى عليها ، ولمثل هذا نقول :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

كلمة (مع) تفيد المعية ، والمعية فى أعراف البشر أنْ يلتقى شىء بشىء ، لكن إذا كانت المعية مع الله فافهم أنها معية أخرى غير التي تعرفها مع زميلك أو صديقك ، خُذْها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] فلك وجود ولله وجود ، لكن أوجودك كوجود الله ؟ الله يعلم أننا نسجل الآن فى مسجد أبى بكر الصديق ، لكن هل علْمنا كعلْمه تعالى ؟ الله يعلم هذا قبل أن ينشأ المسجد ، وقبل أنْ نُولد نحن .

لذلك يضرب الله لنا مثلاً فيقول : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] هذا مَثَل للرد على الذين يطلبون رؤية الله عز وجل

وهو غَيْب ، مثَل للذين قالوا لنبيهم[1] ﴿ أرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾[النساء]

لكن كيف يرونه والعظمة فى الإله ألاَّ يُرى ، ولا تدركه الحواس ، والحق سبحانه يعطينا الدليل فى أنفسنا ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] فتأمل فى أقرب شىء إليك فى نفسك ، لا فى الآفاق من حولك ، أليست فيك روح تُحرِّك جسمك ، وبها تحيا وتنفعل أعضاؤك ، بدليل إذا خرجتْ منك هذه الروح تصير جثة هامدة ؟ أرأيت هذه الروح وهى بين جنبيك ؟ أأدركتها بأىِّ حاسة من حواسك ؟

إذن : هى معك ، لكن ليست تحت إدراكك ، وهى خَلْق بسيط من خَلْق الله ، فكيف تتطلع إلى أن ترى الخالق سبحانه وأنت لا تقدر على رؤية المخلوق ؟ لكن إن قُلْت : فرؤية المؤمنين لله فى الآخرة ؟ ففى الآخرة يخلقنى الله خَلْقاً آخر أستطيع أن أراه سبحانه ، حيث سيكون للخَلْق معايير أخرى ، ألستَ تأكل وتشرب فى الآخرة ، ومع ذلك لا تتغوَّط فى الجنة ؟

لذلك لما سأل حاكم الروم أحد علماء المسلمين : كيف تأكلون وتشربون فى الجنة ولا تتغوطون ؟ فقال له : وما العجيب فى ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل فى بطن أمه يتغذى وينمو وهو لا يتغوط ، ولو تغوَّط فى مشيمته لاحترق .

ثم سأله : وتقولون إن نعيم الجنة تأخذون منه ولا ينتهى ولا ينقص ؟ فقال : هَبْ أن لك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها ، وقبستْ من مصباحك ناراً ، أينقص منه شىء ؟

---

(١) قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾ [النساء] . فهم اليهود سألوا نبيهم موسى عليه السلام ، فكان جزاءهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .. (١٥٣) ﴾ [النساء] .

فسأله : فأين تذهب الأرواح التى كانت فينا بعد أن نموت ؟ فقال : تذهب حيث كانت قبل أنْ تسكن فينا .

هذه مسائل ونماذج للتوفيق والهداية للحق فى إطار : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. ﴾ (٦٩) [العنكبوت] وهى فَيْض مما قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ﴾ (٢٩) [الأنفال]